Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human and Social Sciences

مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

الأمير عبد القادر فارس الإيمان، قراءة في كتاب محمد الشريف ساحلي

Prince Abdul Qadir, Knight of Faith, reading in the book of Muhammad Sharif Sahli

حاج بن دحمان- hadj bendahmane
جامعة أحمد زبانة غليزان،
University of Ahmed Zabana Relizane,
الايميل المهني bendahmane.hadj@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021-10-06 **تاريخ القبول :** 2021-10-20

الملخص:

في الوقت الذي ركزت فيه كثير من الدراسات، وخاصة الفرنسية منها، حول رائد المقاومة الشعبية الأمير عبد القادر ومؤسس الدولة الجزائرية الحديثة على الجانب العسكري المتمثل في معاركه وخططه العسكرية، وكذلك على الجانب السياسي والمتمثل في معاهداته وطريقة تسييره لشؤون دولته الناشئة، فإننّا نجد المؤرخ الجزائري محمد الشريف ساحلي قد ركز في كتابه القيم "الأمير عبد القادر فارس الإيمان" على الجانب الإنساني والروحي في حياة الأمير، وقد بيّن المؤرخ أن الأمير قد ارتقى معارج المجد بفضل إنسانيته ونبله.

الكلمات المفتاحية: المواقف الإنسانية، الدين، الرحمة، التواضع، التضحية.

Abstract:

At a time when many studies, especially the French ones, focused on the pioneer of the popular resistance, Emir Abdelkader and the founder of the modern Algerian state, on the military side represented in his battles and military plans, as well as on the political side represented in his treaties and the way he conducts the affairs of his emerging country, we find the Algerian historian Muhammad Sharif Sahli focused in his valuable book "Prince Abdul Qadir, Knight of Faith" on the human and spiritual aspect of the prince's life, and the historian has shown that the prince has risen to glory thanks to his humanity and nobility.

Keywords: Human attitudes; religion; mercy; humility; sacrifice.

مقدمة:

إن الدراسات المنجزة مبكرا، وهي كلها تقريباً من باحثين ومؤرخين غربيين، وخاصة الفرنسيين لأنهم يملكون عنه أكثر من غيرهم وثائق أساسية عن حياته ومجالات تفكيره، حول زعيم المقاومة الجزائرية الأمير بالجوانب العسكرية والسياسية دون سواها، فإن هذه الدراسات لم تبوء الأمير عبد القادر المكانة التي هو جدير بها، ذلك أن هذه الدراسات انقسمت إلى قسمين، القسم الأول تعتبره شخصية فذة وممتازة يجب التعريف بها، والقسم الثاني تعتبره عدو لدود. فإننا نجد على سبيل المثال في القسم الأول كتاب السيد الاسكندر بيلمار بعنوان "الأمير عبد القادر: حياته السياسية والعسكرية" والتي نشرها سنة 1863 وهو كان مترجما وعلى صلة بحياة الأمير. وأيضا كتاب المؤرخ الانجليزي بلانت W.Blunt الذي ظهر عقب الحرب العالمية الثانية والذي يحمل عنوان "صقر الصحراء، عبد القادر والاحتلال الفرنسي للجزائر". وفي القسم الثاني على سبيل الذكر لا الحصر كتاب الكولونيل بول أزان الذي ظهر سنة 1925 تحت عنوان "الأمير عبد القادر 1808-1883 من التعصب الإسلامي إلى الوطنية الفرنسية" وهو كتاب فيه كثير من التحليل والاجتهاد الشخصي في تفسير النصوص، ولكن يؤخذ على المؤلف أنه كرجل عسكري أنساق وراء القاعدة التي تقول "عظمتك من عظمة عدوك" فهو باعتباره مؤلف عدة كتب عن الجيش الفرنسي في الجزائر، يريد أن يثبت مكانة عالية لقواد هذا الجيش لأنهم كانوا يحاربون خصماً عنيداً جديراً بهم، هذا من جهة وجهة ثانية فإن كتب أزان يسير في خط واضح سار عليه معظم الكتاب الفرنسيين، وهو أن الأمير قد أصبح بعد سنة 1847 صديقاً وفياً لفرنسا، وهذا الخط يفسره العنوان الفرعي للكتاب الذي يقول "من التعصب الإسلامي إلى الوطنية الفرنسية".

ما يلاحظ على هذه الدراسات المذكورة آنفاً وغيرها أنها اهتمت بالحياة العسكرية والحربية وبالجوانب السياسية بالدرجة الأولى في شخصية الأمير عبد القادر، وبذلك ظلت

الجوانب الروحية والاجتماعية والإنسانية في شخصية الأمير مهملة ولم يلتفت إليها، ولم تدرس بشكل كاف نظراً لعدة اعتبارات وخلفيات إيديولوجية وكولونيالية.

إن الدراسة الغربية القيمة حول جوانب حياة الأمير عبد القادر هي تلك التي أنجزها المؤرخ الانجليزي تشارلز هنري تشرشل الذي طبع سنة 1867 والذي يحمل عنوان "حياة الأمير عبد القادر السلطان السابق لعرب الجزائر" وهو نوع من الترجمة الذاتية لأنه كتبه كما يقول من إملاء الأمير نفسه، ترجمة تشرشل للأمير تختلف عما سبق ذكره، فهي أولاً تجمع إلى الحوادث السياسية والعسكرية عنصرا هاما في حياة الأمير وهي الروح الدينية والمواقف الإنسانية والاجتماعية، أي أن هذه الدراسة تمجد بطولة الأمير الحربية وتمجد مواقفه الإنسانية. وهي ثانية تهتم بالبحث لذاته. إن دراسة تشرشل حول الأمير جاءت جامعة لعدة جوانب ايجابية تفتقر ألبها الأعمال الأخرى سواء كانت عربية أم فرنسية، غير أن الملاحظة التي لاحظناها أن هذه الدراسة تنتهي بحوادث سنة 1964، وبذلك تظل تسع عشرة سنة من حياة الأمير غير واردة الأحداث عن مصدرها الأصلي وهو الأمير نفسه.

إن هذا المقال يستهدف الإجابة عن التساؤل التالي: ماهي هذه الجوانب الإنسانية في شخصية الأمير وما هي خلفياتها الفكرية والاجتماعية؟ وما هي تأثيراتها على المستوى المحلي والعالمي؟ وقبل التطرق إلى الجوانب الروحية والإنسانية في شخصية الأمير عبد القادر وفي مواقفه التي سجلها محمد الشريف ساحلي في كتابه "الأمير عبد القادر فارس الإيمان" وجب علينا أولً التعريف بالمؤَلِف والمؤُلَف.

المحور الأول: التعريف بالمؤَلِف محمد الشريف ساحلي (1906-1989) ومكانته الفكرية:

أولا: التعريف بمحمد الشريف ساحلي:

مؤرخ وصحفي ودبلوماسي جزائري ولد في بلدية سوق أوفلة في قبيلة آث وغليس ببجاية، أكمل تعليمه الابتدائي في سيدي عيش[1] والمدرسة الثانوية ثانوية (الأمير عبد القادر) ودار المعلمين ببوزريعة في الجزائر العاصمة. أنهى حياته الجامعية في باريس، السوربون، حيث حصل على إجازة في الفلسفة والتاريخ. عمل أستاذاً في باريس بثانوية هنري الرابع بين عامي 1930 و1939. وفي عام 1939 سرح من العمل بسبب كتاباته القومية ولما أبداه من نزعة استقلالية ومشاعر وطنية، بحيث كان يكتب في جريدة الأمة الناطقة باسم حزب نجم شمال إفريقيا، كما كان ينشط في جمعية طلبة شمال إفريقيا، وقد ذكرت جريدة البصائر أنه ألقى في تلك الجمعية محاضرة عنوانها "مقاومة الوطنيين بالشمال الإفريقي للاستعمار الروماني" جريدة البصائر، 106، في 1938/04/02، وعدم حصوله على الجنسية، وفي سنة 1950، ونتيجة إنصاف العدالة له، استفاد من حكم قضائي تم بموجبه إعادة إدماجه في سلك التدريس إلى غاية 1957 م. شارك محمد الشريف ساحلي مبكراً في النضال من أجل القضية الوطنية، زاول محمد الشريف ساحلي إلى جانب مهنة التدريس، نشاطا سياسيا في أحضان الحركة الوطنية، فانضم إلى صفوف نجم شمال إفريقيا وبعدها حزب الشعب الجزائري[2]. وانخرط في صفوف حركة انتصار الحريات الديمقراطية(MTLD) سنة 1948م والتي

ساهم في تحرير صحفها، وتكوين مناضليها اعتمادا على التاريخ هوايته المفضلة. وكتب في مجلاّت" الأمة" و"إفريقيا" و"الشاب المسلم"، ثم أخيرا في مجلة "المجاهد"، وكلف خصوصا بكتابة المقالات التاريخية والسياسية في المجلات الفرنسية، وفي صحيفة الأمة والبرلمان اللتين كان يصدرهما الحزب منذ عام 1940 م. اختار اسم (ابن تومرت) كتوقيع لنشر مقالاته.

وفي عام 1955 كان عضوا في لجنة الصحافة لاتحاد جبهة التحرير الوطني في فرنسا. من عام 1957 إلى 1962، كان الممثل الدائم لجبهة التحرير الوطني، وقد مثل الشريف ساحلي جبهة التحرير الوطني في بلدان شمال أوربا، حيث من عام 1957 م، انتخب للعمل في الجبهة الدبلوماسية للدول الاسكندينافية، انطلاقا من ستوكهولم، وقد ظل في موقعه حتى بعد الاستقلال سنة1962[3].

بعد الاستقلال، كان مدير المحفوظات، ثم سفيرا في الصين، وكوريا الشمالية وفيتنام، ثم إلى تشيكوسلوفاكيا خلال أعوام (1971-1978)،لم يتزوج قط، واستقبله منذ تقاعده في عام 1978 ابن أحد أبناء عمومته، وتوفي في 4 يوليو 1989 في الجزائر العاصمة. ودفن في مقبرة العالية.

ما يقال عنه أنه رجل فكر، وتاريخ، وديبلوماسي مقتدر. له صداقة قوية مع (نلسون موندیلا)، وله مراسلات مع نوردوم سيهانوك زعيم كمبوديا ، ورغم طول عمله كسفير إلا أنه مات

فقيرا عازباً، دون أن يترك شيئا مذكوراً من متاع الدنيا ، فقد عاش للجزائر و(تزوج بالجزائر) حسب رده عن سائليه.

من مؤلفاته: له مساهمات فكرية وتاريخية عديدة، كشف من خلالها التحريفات والأغاليط الكثيرة التي لحقت بتاريخ الجزائر، من طرف الكتاب الفرنسيين، وأهمهما – "ورسالة يوغرطة سنة 1947 وقد أهداه للشيخ البشير الإبراهيمي.

- ✓ الجزائر تتهم بالمؤامرة ضد الشعوب الأفريقية (1949) وقد حجز تحت الطبع.
- ✓ المؤامرة على الشعوب الإفريقية وقد حجز أيضاً.
- ✓ الأمير عبد القادر فارس الإيمان 1953.
- ✓ والأمير عبد القادر: أساطير فرنسية ووقائع جزائرية، طبعة ENAP، الجزائر، 1988.
- ✓ تحرير التاريخ من الاستعمار (1965)"[4].

ثانيا: المكانة الفكرية لمحمد الشريف ساحلي:

الاطلاع على إلإرث الفكري والثقافي والتاريخي لهذا الرجل يُظهر فطنته وبوعه الطويل في بعث وانبعاث الفكر الوطني المحلي، فقد توجس مصالي الحاج في فكره ومؤلفه (رسالة يوغرطة) الذي تزامن مع تدويل شعار "الجزائر العربية الإسلامية "في الأمم المتحدة، فعده من منظري البربريست.

فإنتاجه في الحقل التاريخي والسياسي وإن قل كماً، إلا أنه يحمل في جوانحه تمرداً وصراخا، غرضه تفطين الأمة وتنبيهها إلى أساليب المستدمرين في (تقزيم الأمة المغاربية) بجعلها كماً بشريا منقاداً لا قائداً ، وأنها أمة لا تظهر إلا في ثوب غيرها، أمة لم تستطع بناء كيانها السياسي، وأنها ضحية الجغرافيا، وهو الدأب التي سلكته المدرسة التاريخانية الفرنسية على لسان بحّاثيها من أمثال شارل أندري جوليان، و شارل روبير أجيرون، ولوي رين، وغزيل وغيرهم كثير، الذين تمركزت بحوثهم على إثبات قِدم التواجد الأوروبي في بلادنا وحقهم التاريخي فيها، تبريرا لغزوهم لها .

المحور الثاني: التعريف بالمؤَلف"الأمير عبد القادر فارس الإيمان":

الكتاب يحمل عنوان "الأمير عبد القادر فارس الإيمان" الكتاب كتب باللغة الفرنسية " Abdelkader, chevalier de la foi" وترجمه إلى العربية محمد يحياتن، منشورات المؤسسة الوطنية للاتصال والإشهار ANEP وحدة الرويبة بالعاصمة سنة 2008، ويحتوي على 143 صفحة. ويضم الكتاب إضافة إلى تمهيد من المفكر أبوعمران الشيخ وتنبيه من المترجم محمد يحياتن، أربعة عشر فصلا، إضافة إلى مقدمة وخاتمة. وعناوين الفصول هي: تكوين عبد القادر، ذهنية حداثية، أخلاقيات الكمال، في الدين، العلم والدين، إشعاع عبد القادر، التصوف، فارس الإيمان، عبد القادر الطاهر، الأمير المغوار، الأمير الصارم، الأمير المتسامح، الأمير الحليم، والفصل الأخير هو أوج التألق.

أولا: الأمير عبد القادر فارس الإيمان:

لهذا الكتاب قيمة علمية كبيرة لأنه أولاً كتب من طرف مفكر جزائري، عانى مثل الأمير عبد القادر من السياسات البشعة للاستعمار الفرنسي، وبالتالي فأفكار هذا الكتاب من طبيعي أن تعبر بصدق ونزاهة عن أفكار الأمير التواقة إلى الحرية لأنَّها كتبت من قبل أحد مواطنيه المؤهلين أيما تأهيل، في حين أن الكتابات الغربية عنه دائماً تكون بدافع الأهواء وتخلو من الموضوعية، إضافة إلى أن كتابها غريبين عن عقلية المجتمع الجزائري وعن عاداته وتقاليده، ولهذا فإن هذه الدراسات تفتقد إلى الموضوعية والنزاهة العلمية مهما حاولت تحريها. وثانيا تكمن أهمية هذه الدراسة في أنَّها كانت السباقة في التركيز والاهتمام بالجوانب الروحية والمواقف الإنسانية في شخصية الأمير دون غيرها من الجوانب العسكرية والسياسية والدبلوماسية التي أولتها الدراسات السابقة له الأهمية القصوى.

لوضع هذا الكتاب، اعتمد محمد الشريف ساحلي الفيلسوف والمؤرخ على وثائق عديدة، "لم يركز على حملات الأمير العسكرية لتقديم رجل الثقافة والفكر والدين، كما يدل على ذلك عنوان الكتاب، بل رأى أن خصال الأمير الإنسانية وفكره العميق ذو أهمية أكبر لاسيما وأنَّها ليست معروفة أو أن الأهواء الشخصية قد شوهتها، لذا قرّر إنصافه بالبحث في شخصيته انطلاقا من مصادر ذات مصداقية"[5].

ففي مقدمة الكتاب، يصرح المؤلف محمد الشريف ساحلي، بأن نضال الأمير عبد القادر طيلة خمس عشرة سنة ضد الاستعمار الفرنسي يعتبر ملحمة قد أسالت الحبر الكثير، إذ كُتِبَ حول الأمير أكثر من ألف كتاب، ولا يبدو أنَّ اهتمام المؤرخين والكتاب سينصرف عن تاريخ الأمير وشخصيته الفذة. لكن "رغم هذا العدد الهائل من الأبحاث والأحكام، فإننا نعدم رؤية صحيحة ومناسبة حول أعمال ومصير تفننت الأهواء المنحازة في تعتيمها والتي تبدو مشمعة

بمنطق الدولة[6]، إن ما دفع محمد الشريف ساحلي إلى تأليف هذا الكتاب هو أن هذه الدراسات السابقة تخلو من النزاهة العلمية ومن الموضوعية التي يتطلبها البحث العلمي الأصيل، إذ جلها كانت بدوافع إيديولوجية استعمارية، ولهذا فإرث الأمير عبد القادر في جميع المجالات الفكرية والعسكرية والدبلوماسية وغيرها تحتاج إلى أعادة النظر والتمحيص والدراسة بعد ما شوهته هذه الدراسات المنحازة.

إنَّ هذه الدراسة، كما يؤكد المؤلف "تهدف إلى التعريف ببعض الأوجه المهملة أو غير المعروفة عن شخصية عبد القادر، إن الإشادة برجل المقاومة، قد تنسي أو قد توهم بأن المفكر أو الرجل ببساطة لا يقلان أهمية. فالحركة عن عبد القادر تترجم الفكر وتشي بالمزاج. إن الروح المنسجمة لدى عبد القادر كالكتلة الصلبة تبدو كذلك في أدق مساعيها"[7]. إذ كل الدراسات والأبحاث السابقة، في نظر محمد الشريف ساحلي قد أولت الأهمية للجانب العسكري فقط، وغضت الطرف، بقصد أو عن غير قصد، عن جوانب مهمة في شخصية الأمير عبد القادر، لا تقل أهمية عن الجانب العسكري. ويعطي المؤرخ محمد الشريف ساحلي جانب من هذه الجوانب التي أهملها مشرط التشريح[8]، كمثال على ما قاله، وهو الجانب الشعري في شخصية الأمير عبد القادر، حيث "إن القارئ المطلع على أشعاره الجزلة الجميلة والمليئة بالأحاسيس اللطيفة ليندهش حين يراه يرتقي في مدارج التأمل الفلسفي الذي ينم عن رؤية عميقة وإلهام جم كان من شأنهما أن يجعلا منه مفكراً من الطراز العالي لو سمحت له الظروف بأن يعمق معرفه وأن يتعاطى بكل هدوء التأمل والتنظيم"[9]، فلو قيّض للأمير عبد القادر أن يتفرغ للأدب، بعيدا عن الحرب والمقاومة التي أخذت الشطر الكبير من عمره، لكان، كما يرى المؤلف، مفكرا له حضور قوي في الساحة الأدبية العالمية ولسجل في سجل العلماء الأعلام. فشعره الذي ضمه كتاب "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل" والذي ألفه بسرعة خلال الاعتقال وسط العذاب المعنوي الرهيب والمسؤوليات اليومية الثقلية، يحمل أفكار فلسفية، فيها الكثير من التأمل والمناجاة والحكمة، تنم عن رؤية عميقة للإنسان والكون والحياة، لا تقل أهمية عن ما جاء به كثير من الفلاسفة والمفكرين.

إن المؤلف في مقدمة هدا الكتاب يرفض بشدة أن يلقب الأمير عبد القادر بـ"نابليون الصحراء" من عدة نواحٍ، أولها أن الدراسات الاستشراقية دائما تربط الشرق بالصحراء، وهذا يذكرنا بكتاب المؤرخ الانجليزي بلانت W.Blunt الذي ظهر عقب الحرب العالمية الثانية والذي يحمل عنوان "صقر الصحراء، عبد القادر والاحتلال الفرنسي للجزائر"، في حين أن الأمير عبد القادر لا علاقة له بالصحراء، فهو ترعرع في مناخ جغرافي بعيداً عن الصحراء، فهو ابن الهضاب العليا، وبانٍ للمدن على الطراز الحديث. وثانيا إن المقارنة مجحفة لأن ما توفر لنابليون بونابرت من إمكانيات وموارد كبيرة وحقق بفضلها ما حقق من انجازات على المستوى العسكري والسياسي لفرنسا وأوروبا، "ترى ماذا كان في مقدوره القيام به لو كان مكان عبد القادر المحارب بوسائل متواضعة وفي ظروف صعبة ضد أقوى جيش في تلكم الفترة؟"[10]، وبالمقابل يحق لنا أن نتساءل: ماذا كان الأمير فاعل لو توفر له نصف ما توفر لبونابرت من إمكانيات؟ إنه حتما سيحقق انجازات أعظم من تلك التي حقق بونابرت وفي هذه الحالة لن يقارن به إطلاقا. والسبب الثالث في رفض هذه المقارنة هو "أي قاسم مشترك بين غاز يذبح شعوباً لتحقيق طموحه والمواطن الجزائري صاحب التواضع ونكران الذات الهائلين والذي امتنع، وهو يسعى لإنقاذ بلاده، عن كل عن غير مجد ووحشية؟"[11]. أيّ أن هناك اختلاق بيّن بينهما على المستوى الأخلاقي والتربوي، فنابليون بونابرت استعماري غاز، متعطش للدماء، لم يتوان في إبادة الشعوب والأقوام من أجل تحقيق مطامحه الاستعمارية، وتاريخه حافل بالجرائم التي يندى لها جبين البشرية، في حين أن الأمير عبد القادر الجزائري، ذا التكوين الإسلامي بأخلاقه الرفيعة السمحة، ومبادئه السامية، المعتدى على أمته، كان، وهو يدافع عن وطنه وأمته يتجنب قدر الإمكان إراقت الدماء، فالحرب "بالنسبة إلى الأمير ضرورة محزنة سعى إلى أن يسبغ عليها وجها إنسانياً بالتحلي دائماً بالطيبة والكرم حيال أعدائه"[12]. وإذا كان نابليون بونابرت يسير في سياساته وفق القاعدة الميكيافيلية التي تنص على أن الغاية تبرر الوسيلة، فإن الأمير عبد القادر كان على عكس ذلك، إذ كان يمجّ كثيراً اللاأخلاق السياسية، إذ لا شيء في نظر الأمير يبرر الوحشية والخداع والكذب والبطش والهمجية التي يتصف بها الحاكم، ولهذا ربط الأمير دائما بين الأخلاق والسياسة، وهذا الربط نابع من تنشئته الإسلامية، إذ كان يرى في هذا الفصل بين السياسة والأخلاق نوع من الكفر. فلا أحد ممن ظفروا بالسلطة العليا، في نظر المؤلف، "انْتَقَدَ بمثل هذا الوضوح الغزاة والطغاة مثل ما فعل

عبد القادر"[13]، فكل سياساته في الحكم تعمل على حماية حقوق الرعية، وتخضع لمبادئ الرحمة والرأفة والمشورة وتقبل الرأي الآخر والعمل بالنصيحة ونجدة الفقير وحماية الأرملة واليتيم، في حين يعمل الطغاة على سلب حقوق الرعية، والاستيلاء على ممتلكاتها بغير وجه حق.

وبعد أن رفض المؤلف محمد الشرف ساحلي المقارنة الجائرة بين الأمير ونابليون، يتساءل في مقدمة الكتاب عن من يجب مقارنة الأمير به؟ والمؤلف يقترح نموذجين الأول الإمبراطور الروماني "ماركوس أورليوس انطونينوس (121م/180م) الملقب بالفيلسوف المحارب أو الإمبراطور الحكيم"[14]، الذي عرف بحنكته في إدارة شؤون الحكم، إضافة إلى مؤلفاته الفكرية، منها كتابه "الخواطر"، وقد كان رواقي المذهب، وعلى الرغم من أنه كان يحكم شطراً واسعاً من العالم، ولا يعرف ساعة من الهدوء في خيمته العسكرية المتنقلة، ورغم ذلك احتفظ هذا الإمبراطور بعادة اكتسبها في شبابه، وهي أن يكتب ليلاً، ويراسل صديقه ومعلمه ويعالج في رسائله موضوعات الدرس وقضايا تتعلق بالأسلوب، وتكلم عن رقة صحته التي زاد في وهنها تقشفه المسرف. ولكن رغم بعض القواسم المشتركة بين هذا الإمبراطور الروماني والأمير عبد القادر، من ناحية الإمارة والاهتمام بالكتابة، إلا أن المؤلف محمد الشريف ساحلي يرى أن هذه المقارنة هي الأخرى غير صائبة، إذ أن الأمير عبد القادر يحكم بمنطلق إرادته وحريته المطلقة، في حين أن الإمبراطور ماركوس أورليوس ليس سيدا في قراراته لأنه خادم للنظام الروماني، بحكم أنه أسباني الأصل وتم تبنيه من طرف القصر الروماني. وأما النموذج الثاني الذي يقترحه محمد الشريف ساحلي، والذي يرى أنه يقارن به بحق هو الفيلسوف اليوناني سقراط (470 ق م/399ق م)، إن الأمير عبد القادر "كان بمثابة سقراط الجزائري، أجل كان يشبه سقراط من حيث لطافته وطيبته وصبره وتحكمه التام في ذاته وأخلاقه العالية"[15]، هذه الصفات النبيلة التي تحلى بها الأمير جعلت العديد من الفرنسيين يقولون: "كن يا عبد القادر صديقنا" وهم يتأسفون أن يكون مثل هذا الرجل النبيل والشهم عدواً لفرنسا.

وفي ختام مقدمة هذا الكتاب، يؤكد المفكر محمد الشريف ساحلي، أنه ليس من شطط القول أو الفكر أن يدافع أي جزائري عن الصفات النبيلة في شخصية الأمير عبد القادر، وأنه ليس من الغلو أن نؤكد، كما يرى المؤلف، على أنه لا نستطيع أن نعثر على شيء مشين أو حقير في شخصية الأمير، ويختتم المؤلف مقدمته بهذه العبارة الرائعة في معناها ومبناها، حيث يقول: "فسواء تعلق الأمر بأفكاره وأحاسيسه وأعماله، فإن كل شيء فيه ينطوي على شيم النبل والعظمة، إنه من طينة المخلوقات النادرة التي تعرض من قرن إلى آخر، ومن ألفية إلى أخرى، على الجنس البشري فكرة عن الكمال والنموذج المثالي. لقد شرّف عبد القادر، بحياته وطبعه وأعماله بلاده وعقيدته والبشرية برمتها"[16]، هذه العبارة تؤكد أن المكانة التي تبوأها الأمير، لم تكن بفضل خصاله العسكرية وحنكته في الحروب والدبلوماسية فحسب، بل أيضا بما امتاز به من خصال أخلاقية نبيلة، وهو ما دفع المؤلف إلى تأليف هذا الكتاب من أجل التنقيب عنها وتجليتها، والتأكيد أنها لا تقل عن حذاقته العسكرية.

بعد هذه المقدمة الوظيفية، ينتقل بعدها المؤرخ والفيلسوف محمد الشريف ساحلي إلى التفصيل في ذكر الجوانب الإنسانية في شخصية الأمير عبد القادر، إذ يعد هذا المؤُلّف من الدراسات المبكرة –حيث ظهر هذا الكتاب سنة 1947- التي تفطنت إلى الجوانب المغيبة في شخصية الأمير، غير الجانب العسكري الذي كان قطب الرحى في كل الدراسات السابقة.

وإذا كان هذا المقال لا يتسع لذكر كل الجوانب الإنسانية التي ذكرها المفكر محمد الشريف ساحلي في هذا الكتاب، إذ نجد في هذا الكتاب أربعة عشر فصلا حول خصاله الحميدة، فإننا في هذه الحالة سننتقي منها ما يلقي الضوء أكثر على شخصية الأمير عبد القادر، والتي بفضلها أصبح شخصية عالمية، يلقى الترحيب والتكريم والإشادة به أينما حل وارتحل.

أ-أخلاقيات الكمال: في بداية هذا القسم أو الفصل يتساءل الكتاب على لسان الأمير قائلا إذا كان واجب الإنسان يكمن في التطلع نحو ما هو أحسن وأفضل، فما هي السبل والوسائل المتاحة له في هذا البحث عن الكمال؟ إنَّ الأمير عبد القادر من خلال محاولته الإجابة عن هذا السؤال كشف عن مقدرته الفكرية وكفاءته العلمية في الخوض في أحدى المباحث الفلسفية إثارة للخلاف والجدل بين المفكرين والفلاسفة، وهو مبحث الفلسفة الخلقية.

إنَّ ما يلاحظ أن الأمير عبد القادر قد عالج قضايا الفلسفة الخلقية وفق الرؤية الإسلامية البحتة، وكهذا

"استطاع الأمير بجمعه بين الوحي الإسلامي والموضوعات الكبرى للأخلاقيات العتيقة أن يصوغ نظرية للملذات والفضائل"[17]، والسؤال المطروح: كيف تمت هذه الصياغة؟ وكيف تحلى بها الأمير في معاملاته الاجتماعية؟ أو كيف انعكست هذه الصياغة على شخصيته؟

إن من أهم قضايا الفكر الأخلاقي هي قضية اللذة والمتعة، أو ما يعرف في تاريخ الفلسفة بالنزعة الأبيقورية (Epicurisme) ومذهب اللذة (Hedonisme) إذ يدعي هذا المذهب أن اللذة هي الخير الأعظم، وأن السعادة في الشعور باللذة الحاضرة[18]، وقد اختلف الفلاسفة حول تحديد اللذة وعلاقتها بالخير والفضيلة. وفي تحليل الأمير عبد القادر للذة، يرى أن جميع الحيوانات تبتغي اللذة وتطلبها، لكن اللذة لا يمكنها أن تشكل غاية أخلاقية، كما كان يرى الفيلسوف اليوناني أبيقور (341ق م-281 ق م) وأتباعه من بعده، إن الإنسان، في نظر الأمير، يضمن ترقيته وتقدمه والسير في سبيل الكمال بالعلم لا باللذة، "إن العلم وحده هو الذي يستطيع أن يهب الإنسان متعة من هذا القبيل، فهو الذي يسخر قدرته الكبرى والأكثر تميزاً بالفكر، فالعلم يعني بالنسبة إلى روحه إثراء لا حدود له متعة لا تبعث على الضجر أطلاقاً"[19]، وإذا زاغت النفس أو القلب عن العلم، انحدرت في دركات الرذيلة والحيوانية، فاللذات أنواع، هناك لذة يشارك الإنسان فيها جميع الحيوانات كلذة البطن والفرج، وهذه أكثر اللذات وجوداً وأخسها، وهناك لذة يشارك فيها الإنسان جميع الحيوانات كلذة الرياسة والغلبة والاستيلاء، وذلك موجود في الأسد والنمر مثلا، وهذه اللذة الأخير هي التي تجعل الإنسان في فلسفة الأمير عبد القادر، يستعبده غيره من بني جنسه، وهي منبع الاستعمار والعبودية المقيتة، ولهذا نجد أن أخلاق الأمير عبد القادر السامية تمجّ هذا النوع من اللذة، وتحرص على عدم الإساءة للكيان البشري مهما كان لونه وجنسه.

إن ارتقاء الإنسان في مدارج الرقي والتقدم مرهون باكتساب أربع فضائل أساسية وهي: الحيطة والعدل والشجاعة والعفة، وهي مرتبطة، كما يرى الأمير عبد القادر، بالوظائف الأساسية للفكر البشري وهي: الذكاء والإرادة والحساسية. إن هذه الفضائل الأربع "تتجلى في النفس السوية في روح التضحية وعظمة الروح والثبات في المحن والاستكانة أمام القدر المبرم"[20]، إن حياة الأمير عبد القادر كانت تطبيق لفلسفته الخلقية، إذ يطلعنا سيرته الشخصية على مواقف فيها الكثير من التضحية والإيثار وهو أعلى درجات السخاء وكمال أنواع الجود ومنزلة عظيمة من منازل العطاء، وفيها الكثير أيضا من الثبات والصبر في المحن والابتلاءات والشدائد وهي معيار معرفة معادن الرجال، يقول الله تعالى: {.. وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} (الحج:34 و 35). إذا أخذنا مثلا فضيلة العفة، فإننا نجد أن الأمير عبد القادر، يرى أنها تمثل الدور الأساسي في إلغاء الاستعباد والطموح وإنكار الكيان البشري في ذاته وفي الآخرين، ومن ثم "فإن العفة هي أهم الفضائل وتتوج الفضائل الأخرى وتحدد الحياة الأخلاقية الأصيلة"[21]. وإذا غابت العفة وقعدت النفس فريسة للجشع اللامحدود. فإذا تحلى كل فرد من المجتمع بهذه الفضائل الأربع، سيكون على استعداد لأداء واجباته وأكثر استعداداً للحياة الاجتماعية. وفي نهاية هذا الفصل، يقدم لنا المفكر محمد الشريف ساحلي مثالا حياً على تحلي الأمير عبد القادر بهذه الفلسفة الخلقية التي نظّر لها في كتابه "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل" وهو موقف شجبه اكتناز الذهب والفضة وأكثر من ذلك استعمالهما لصنع الأواني الخاصة بالشرب والأكل، فمن فعل ذلك فهو ظالم، وموقفه هذا نابع من الشريعة الإسلامية التي تحرم ذلك، فقد ثبت عن رسول الله عليه الصلاة والسلام أنه قال: "لا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها، فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة" وثبت أيضاً عنه ﷺ أنه قال: "الذي يشرب في إناء الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم وفي لفظ آخر: الذي يأكل ويشرب في إناء الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم"، فالذهب والفضة لا يجوز استعمالها أواني، ولا الأكل فيها، ولا الشرب فيها، ولا الوضوء فيها، ولا الغسل فيها، هذا كله محرم، بنص الحديث عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، والواجب منع بيعها حتى لا يستعملها المسلم، وقد حرم الله عليه استعمالها، فلا تستعمل في الشراب ولا في الأكل، ولا يجوز أن يتخذ منها ملاعق، ولا أكواب للشاي، ولا أكواب للقهوة كل هذا ممنوع لأنها نوع من الأواني.

إن الأمير عبد القادر لم ينظّر للأخلاق فقط، بل طبقها، ولمسها من عاشوا معه، عدوا كان أم صديقا، وأخلاقه لافتة "للنظر لسموها وتقشفها "ولئن كانت تنطوي على شيء من الطهرية فإنها مع ذلك تفلت من جفاف وضيق الطهرية لأنها

تجند جميع موارد الروح ولأنها تفتح للإنسان مجالاً لا محدود للنشاط"[22].

ثانيا: إشعاع عبد القادر:

في هذا الفصل الذي يحمل هذا العنوان، يؤكد محمد الشريف ساحلي أن الأمير عبد القادر من طينة الشخصيات التي تملك موهبة إثارة أحاسيس الاحترام والحماسة أو الإعجاب، وحتى أعداءه والجنرالات الذين حاربوه من ديميشيل (1779-1845) إلى بيجو (1748-1849) اعترفوا بعبقريته وسمو أخلاقه. وهذا الفصل حافل بالشواهد التاريخية التي يقدمها المؤلف على هذا الاحترام والتقدير الذي حظي به الأمير من الأعداء والأصدقاء معاً، فعلى سبيل الذكر والحصر، قد نقل "روايات العقيد ميراندول والمتصرف موريزو والنقيب ماسو، والجميع يجمع على خصال الأمير، خلال تبادل للأسرى، لمّا لم تف السلطات الفرنسية بالتزامها، كتب العقيد ميراندول قائلاً بأنه من واجبه المشرف والممتن أن يحيي الأمير ويصرح: "لقد سلّمنا دون فدية أو شرط"، وفي مشهد آخر حول هذا التقدير الكبير لشخص الأمير، يذكرنا المؤلف بموقف أسرى سابقين في معسكر الأمير عبد القادر، قد كانوا من الأوائل لزيارته خلال اعتقاله وتهنئته عند إطلاق سراحه، وقد عرض عليه أحدهم ويدعى ميشال أن يصاحبه إلى غاية بروسيا. هذا عن أعداءه أما عن أصدقاءه فإن محبتهم له كانت كبيرة، خاصة جنوده، ويورد المؤلف هنا حادثة تاريخية، تنم عن الحب الكبير لقائدهم والاستعداد للموت من أجله، حيث أثناء أسر الأمير عبد القادر "أخضع رفقاء الأمير وعددهم 63 إلى جميع الضغوط أملاً في حملهم على التخلي عن قائدهم، وقد اقترح عليهم الإفراج ولكنهم أجابوا: لا، لا لن نقبل ذلك طالما ظل أسيراً، وخلال نقلهم إلى قصر أمبواز عرض عليهم من جديد الإفراج وهددوا بالدفن كيفما اتفق جراء ضيق المكان، غير أنهم ظلوا على موقفهم وردوا قائلين: "ما همّ فنحن نفضل التعذيب على التخلي عنه وهو في الضراء"[23]. وقد اختتم المؤلف هذا الفصل بعد عرضه لشواهد تاريخية عديدة عن هذا التبجيل والافتتان بشخصية الأمير، بعبارة رأى أنها تليق به هي "فم وقلب من ذهب وإرادة من حديد وجسم من فولاذ"[24]، وهنا ندرك لماذا أمكن لمسعى الأمير الأخلاقي المعنوي أن يتبلور حوله في شكل تبجيل ووفاء عميق وتفان لا حدود له.

ثالثا: فارس الإيمان:

في هذا الفصل وهو الفصل الثامن، يؤكد الكاتب على أن الصفة الطاغية على الأمير هي صفة العقيدة، ولا يقصد بالعقيدة الإيمان الديني، لأن هذا الأخير هو المكون الأساسي لشخصيته، بل يقصد بصفة العقيدة تلك الخصال النبيلة التي اكتسبها من تنشئته الاجتماعية ومن تجاربه في الحياة، إن العقيدة "هي القناعة العميقة بأن الحياة أمر جدي كما هي الانطلاقة السخية التي تخرج الكائن من نفسه بحثا عن جمهورية الناس التي يحلم بها الفلاسفة، إنها الفكر والعمل والكلمة والفعل في شكل كيان يشدّ بعضه بعضاً، مانحاً الروح صفاء البلور وشفافيته"[25]، فصفة العقيدة التي عُرف بها الأمير عبد القادر ما هي في نظر الكاتب إلا تقيده والتزامه بصفات أخلاقية رغم ما ينجر عنها من نتائج وخيمة، لم يكن الأمير عبد القادر ليقبل أو يتصوّر الكذب مثلاً، إذ حسب عبارة مانوسي ولاكروا اللذين كانا أسيرين لديه خلال سنتين، كان مخلصاً وأسير عهده، إن الكذب والسفاهة تستثيران غضبه، "فالوفاء بالعهد كان لصيقاً بإخلاصه، وغالباً ما كان يمتدح حرصه على احترام التزاماته"[26]. ويواصل الكاتب في هذا الفصل تقديم شواهد تاريخية من سيرة الأمير تثبت صفة العقيدة التي تحلى بها الأمير، ومن بين هذه الشواهد، أنه خلال هدنة التافنة التي دامت سنتين (1837-1839) وظف عبد القادر في مصالحه عمالاً فرنسيين مقابل أجر جزافي قدره 3000 فرنك للشخص الواحد، كان عليهم أن ينجزوا أشغالاً هامة في المدن الجديدة (تاقدمت، بوغار....) ولكن عند اندلاع المعارك، تخلى هؤلاء العمال عن أشغالهم غير المنتهية طالبين إرجاعهم إلى حيث كانوا يقطنون. كان في مقدور الأمير، بناء على القانون، أن يسجنهم كرعية لبلد عدوّ، بيد أنه لم يكتف بالاستجابة إلى طلبهم فحسب، بل دفع لهم أيضاً أجرهم كاملاً وكأنهم قد نفذوا عقدهم. أيضا يذكرنا الكاتب بموقف الأمير عندما أمر في العام 1841، بكل شهامة ومروءة بالاستمرار في إطلاق سراح الأسرى الفرنسيين الذين كانوا بحوزته تنفيذًا لاتفاق مبادلة أسرى مع جيش الاحتلال الفرنسي، على الرُّغم من أنَّ هذا الأخير أخلَّ بتعهداته وتملَّص من الاتفاق برفضه إطلاق سراح الأسرى الجزائريين. وهناك موقف آخر لم يذكره المؤلف حول معاملة الأمير للأسرى معاملة إنسانية وذلك حين أمر الأمير عبد القادر في عام 1842، بإطلاق سراح الأسرى الفرنسيين بدل قتلهم، بعدما لم يجد من الطعام ما يطعمهم به. وهو الأمر الذي أثار إعجاب

السفاح الماريشال سانت أرنو الذي اعترف بأنَّ الأمير عبد القادر أعاد له كل الأسرى الذين كانوا بحوزته من دون شرط وبدون تبادل، على الرُغم من أنه كان قادرًا على التخلُّص منهم.

وبصدد موقف الأمير من الأسرى، نورد شهادة شارلز هنري تشرشل في مؤلفه "حياة الأمير عبد القادر، حيث يقول: "كتب بطل الفكرة الإسلامية الذي لا يعرف المساومة إلى أسقف الجزائر كلمات تستحق أن تكتب بالذهب قائلاً: أرسل قسيساً إلى معسكري، فسوف لا يحتاج إلى شيء، وسوف أعمل على أن يكون على احترام وتبجيل لأنه سيكون له وظيفة مزدوجة وهي أنه رجل دين وممثل لك، وسوف يصلي يومياً بالمساجين، ويواسيهم ويتراسل مع عائلاتهم، وبذلك يكون واسطة في الحصول لهم على النقود والثياب والكتب، وبعبارة أخرى كل ما قد يحتاجونه أو يرغبون فيه مما يخفف عنهم شدة الأسر، وكل ما نطلبه منه، عند وصوله لدينا، أن يعد وعد شرف لا يتغير بأن لا يتعرض في رسالته إلى الحديث عن معسكراتي وحركاتي العسكرية"[27].

كذلك في الفصل الثالث عشر المعنون بـ"الأمير الحليم" يتطرق المؤلف محمد الشريف ساحلي إلى قضية تعامل الأمير مع الأسرى من جديد، ويقدم لنا صور ناصعة سجلها التاريخ تدل على إنسانية الأمير في تعامله مع الأسرى، ونبذه تعامله بوحشية وبربرية كما تتعامل القوات الفرنسية مع جنوده وأسراه. إذ في الوقت الذي كانت السلطات الفرنسية تقطع رؤوس الأسرى ومعطوبي الحروب من جنود الأمير، وتعتبر جماجمهم غنائم حرب، إذ في هذا الإطار سنت السلطة الفرنسية قانوناً ينص على منحة قدرها عشرة فرنكات لكل من يأتي بأذنين مقطوعين من جندي جزائري، كذلك مراسلة لسانت آرنو لا تدع مجالاً للشك المؤرخة في 18 جانفي 1844 كتب قائلاً: "لن تترك شجرة واحدة واقفة في المروج ولا رأساً على أكتاف هؤلاء العرب البائسين...إنها الأوامر التي تلقتها من الجنرال شانقارنيي وستنفذ في حينها، سأحرق كل شيء وسأقتل الناس جميعاً" [28]، في ظل هذه السياسة الهمجية البربرية من قبل القوات الفرنسية، كان تعامل الأمير مع الأسرى مختلف تماما وإنسانياً، إذ منذ وصوله إلى السلطة ترفع عن هذا التقليد الوحشي، وألغى التعامل بالمثل، وهنا يتساءل المؤرخ محمد الشريف ساحلي: ماذا الذي كان في مقدوره أن يتصور إلغاءه دون اتفاق الخصوم؟ كان لابد من توافر روح الأمير السامية، شجاعته ونفوذه لتصور وفرض تدبير أحادي الاتجاه على ذويه"[29] ، ولم يكتفي بالتعامل بخلاف القوات الفرنسية، بل نشر المرسوم التالي: "كل عربي يأتيني بجندي فرنسي سيتلقى مكافأة قدرها ثماني دورو .... وعلى كل عربي أَسَرَ فرنسياً أن يعامله معاملة حسنة واقتياده حينا أمام الخليفة أو أمام الأمير نفسه. في حالة ما اشتكى الأسير من سوء المعاملة فلن يظفر العربي بأي مكافأة"[30] ، ولم يقف الأمير عند هذا الحد، بل أكثر من هذا كان للأسرى امتياز يتمثل في حصولهم على اللحم والقهوة، ويوزع عليهم شيء من المال على غفلة من جنوده الخاضعين لنظام قاسٍ.

لقد كان الأمير عبد القادر يحرِّر الأسرى احترامًا لإنسانيتهم وصونًا لحقوقهم كبشر، لا باعتبارهم سلعة قابلة لأبشع صور الاستغلال والمساومة، وهو ما تجلى في موقفين للأمير أثارا إعجاب أعدائه قبل أصدقائه، وسجلهما بذلك التاريخ بأحرف من ذهب. تبقى مواقف الأمير عبد القادر الإنسانية مع الأسرى علامة فارقة لما كان لها من أثر بالغ في ترسيخ أخلاق الحرب وحقوق الإنسان في التاريخ الحديث. ففي سعيه الدؤوب إلى أنسنة الحرب وتخفيف آلام الأسرى لم يكتفِ الأمير عبد القادر بسنِّ قواعد قانونية ذات صلة فحسب (مرسوم سنة 1843)، لكنه أسَّس لممارسات وأعراف ثابتة في إطار سياسة متكاملة للقانون الإنساني، نجدها اليوم مكرَّسة في اتفاقيات جنيف لعام 1949، لا سيما الاتفاقية الثالثة.

بعد أن ذكر لنا المؤلف صفات فارس الإيمان والعقيدة في هذا الفصل، اختتمه بقوله "إن بلوغ هذه المرتبة من الإخلاص واحترام الكلمة المعطاة معناه الارتقاء إلى مستوى الكمال، حيث يحقق الإنسان أقصى درجات حضوره في العالم وحيث يلتقي المنطق والأخلاق في وحدة الإنسان" [31]، إن الأمير عبد القادر لم يتبوأ هذه المكانة في تاريخ الإنسانية إلا بإنسانيته، واحترامه للعهود التي أبرمها، وتبرمه من كل ما يسيء لشخصيته وتاريخه المشرف.

رابعا: عبد القادر الطاهر :

يتطرق المؤرخ محمد الشريف ساحلي في الفصل السابع من هذا الكتاب، إلى التقشف الأخلاقي للأمير في اللباس والأكل والزينة، وكل ما تعلق بحياته. إذ نجد أن الأمير عبد القادر قد أخضع نفسه لنظام معيشي قاسٍ جداً، جعل منه "الرجل الأكثر قدرة على المقاومة وأحسن فارس في الجزائر كلها، كان يحيا على الجواد ، وكان يقال بأنه قادر على البقاء فوقه مدة

ثماني وأربعين ساعة أو أكثر"[32] . ففي ما يخص الطعام، كان يمجّ الشراهة في الأكل، كان يكتفي بالقليل منه، وما يسد الرمق فقط، فطعامه المفضل عصيدة من الشعير أو القمح والمعروفة باسم "الروينة" وشيء من الحليب وبعض التمر، وكان الأمير يربط بين الأكل كضرورة بيولوجية وبين مراقبة الأخلاق الصارمة له. فلم يكن يقبل الطعام إلا لقوته وليس للذته، وكان يقول "في قلة الأكل وفرة للصحة". وفي هذا الصدد يورد المؤلف مشهد عن هذا التقشف في الأكل، "فذات يوم، بعد معركة شرسة، سار مدة طويلة مرفوقا بجنوده النظاميين، كانت المواد الغذائية قد نفذت منذ مدة، والجميع أصبح يعاني من الجوع، رأى الجنود كبشاً ضالاً في الحقل، فذبحوه، وخمنوا في طهيه سريعاً، وبفخر واعتزاز قدموه لقائدهم شواء لذيذ، غير أن عبد القادر بتحكمه المعهود في نفسه طرح هذا السؤال: هل حصل كل واحد على نصيبه؟ كان الرد بالطبع سلبياً، ولما تعذر تأمين القسط، أمر برمي هذا اللحم بعيداً"[33] ، هذه هي أخلاق القادة العظماء الذين خلد ذكرهم التاريخ.

أما ما تعلق بالهندام، فقد عرف عنه بالبساطة فيه، فكانت بدلة الأمير العادية تتكون من قطن مغطاة بقندورة من صوف وحايك مربوط بحبيل من شعر الجمل وبرنسين أحدهما أسود اللون في الغالب، إذ يذكر المؤرخ شارل أندري جوليان أن الأمير عبد القادر كان "يزدري الترف في الملبس، فكانت كسوته بسيطة ولكنها نظيفة كان غاية في التدين، إن فضائله من زهد وكرم وعدالة واحتقار للثروة، كانت نفس الفضائل التي تحلى بها كبار القادة في الإسلام، الذين برزوا في أول عهده الزاهر وخاصة الخليفة عمر الذي أخذ هذه الفضائل عن الرسول الكريم نفسه" [34]. إن ما يذكره محمد الشريف ساحلي حول شظف العيش في المأكل والملبس الذي ألزم الأمير نفسه به، يؤكده السجين الألماني في معسكرات الأمير وهو وهان كارل بيرنت، إذ يقول في مذكراته "أن الأمير كان يعيش أكثر بساطة وتواضعا من معيشة معظم العرب، لا يرتدي أبداً ألبسة مذهبة أو مفضضة، ولا يرى ذلك، على نحو لا يخلو من إسراف، إلا فوق أسلحته وجياده"[35] . وقد وصف كثير من الفرنسيين الذين تعاملوا معه هندامه وهيئته، ومن بينهم الجنيرال بيجو، الذي قاله عنه عند لقاءه به في معاهدة التافنة، أنه "قبل الشروع في الحديث، كنت أتأمل في مظهره وبدلته التي لم تكن تنطوي على أي فارق مع بسطاء العرب...جميع ملابسه كانت متسخة وفظة وبالية إلى حد بعيد، وهنا أدركت أنه يحبذ التقشف والبساطة"[36].

إن فلسفة التقشف التي انتهجها الأمير عبد القادر كطريقة للحياة، يرجعها المؤرخ محمد الشريف ساحلي إلى جذورها وخلفياته الفلسفية والدينية. إذ تمثلت الجذور الفلسفية في نفسية الشعب الجزائري الذي كان يطالب دائماً بأن يتحلى قادته بالأخلاق المثالية، وابرز مثال على ذلك الدوناتية "Donatisme" وهي حركة دينية تزعمت المقاومة الدينية للاحتلال الروماني للجزائر، وظهرت في عام 313 م وهي "عبارة عن مذهب مسيحي أسسه راهب أمازيغي يدعى دونات الغربي أو "دوناتوس" (Donatu) الذي ألف كتاباً بعنوان "الروح القدس" وأسس مذهباً انشق عن الكنيسة المسيحية الموالية للحكم الروماني"[37]، وانتشر هذا المذهب الدوناتي بسرعة في مدينة كازنوار (الديار السود) بالقطر الجزائري وبالضبط شمال الأوراس وسط الكادحين والطبقات الشعبية رغم مقاومة السلطة له. كان هذا المذهب ظاهريا يبدو دينياً، لكن باطنياً كان سياسياً، لأنه كان يرمي إلى تحرير المغرب من ظلم الرومان وجبروتهم. وقد كثر أتباع هذا المذهب حتى كادوا في سنة 330م أن يستحوذوا على أكثر كنائس إفريقيا.

وقد استهدف "دوناتوس" مقاومة القوات الرومانية ورجال الدين الكاثوليك الذين كانوا يباركون الاحتلال جملة وتفصيلاً، ويعترفون بشرعية الاستغلال واسترقاق الساكنة المحلية، ويناصرون الأرستقراطية الذين كانوا يحتكرون ثروات الشعب الأمازيغي، وفي نفس الوقت يعرضونه للجوع والفقر والاضطهاد. وتبعاً لهذا أصدر الإمبراطور قسطنطين سنة 317م أمره باعتبار الدوناتيين خارجين على القانون، وأمر الجيش بالدخول للمدن والقرى بالأوراس ومصادرة الكنائس الدوناتية وتسليمها للكاثوليك الرسميين، وكانت أشد المواجهات دموية جرت في مدينة "باغاي". ورغم أن الإمبراطور يوليان عندما نُصّب أصدر مرسوماً سنة 362 م ينص على إعادة الاعتبار للمذهب الدوناتي، فأعيدت له كنائسه، وهي في الحقيقة محاولة من الرومان لتدجين هذا المذهب وجعله مؤيداً لاستعمارهم للمغرب، إلا أن الدوناتيين المخلصين لطموحات الشعب الأمازيغي استمروا في النضال ضد الاستعمار وضد المذهب الكاثوليكي الداعم للاستعمار.

إن "الدوناتية حركة ثورية اجتماعية رافضة لسياسة الرؤمنة ونزعة التمسيح" [38]، وابتداء من القرن الرابع ميلادي تحالفت الدوناتية رسمياً مع حركة احتجاج اجتماعي وتمرد تُعرف باسم "الدوارين" (Circoncellions) وهذا "اللفظ يدل من الناحية القانونية، في البداية على الأقل، على فئة اجتماعية، هي فئة العمال المزارعين الذين يُؤَجَّرون في مواسم الحصاد أو قطاف العنب"[39] . ومن هؤلاء الدوارين كان يُجنّد المدافعون عن القضية الدوناتية أشدّهم تعصباً. فقد جمع هؤلاء الرافضون الاحتجاج الاجتماعي إلى الاحتجاج الديني، فكان هؤلاء الدوارين ينهبون حقول الأسياد المعمرين أو ما يسمى بـ "اللوتيفوندات"، ويحرضون العبيد على التمرد، ويلقون بالمِلّاك في السراديب أو في الآبار، وهذا ما دفع بالكثير من هؤلاء المعمرين إلى العودة إلى بلادهم. لقد "شكلت حركة الدوارين، في تاريخ المقاومة الأمازيغية، إبان الاحتلال الروماني، ثورة اجتماعية بروليتارية بكل مسمياتها، وذات ملامح ثورية جدلية راديكالية، وذات سمات اشتراكية قائمة على التغيير والممارسة الفعلية" [40].

أما الجذور الدينية للتقشف، فتتمثل عند المؤرخ محمد الشريف ساحلي، هي امتثال الأمير لأوامر سنة النبوية الشريفة فيما يتعلق بعدم المبالغة في الأكل والتبذير وفي رغد العيش، إذ كان يطبق السنة النبوية بحذافرها، ولا عجب إذا علمنا أنه قد حفظ كتاب صحيح البخاري في صغره، وعمل بما فيه إيماناً منه بأن السنة النبوية هي ترجمان القرآن الكريم.

خامسا: أوج التألق:

في هذا الفصل الأخير يختتم المؤرخ محمد الشريف ساحلي كاتبه القيم حول الأمير بالعودة إلى التذكير بآخر حادثة في حياته والتي جعلت شهرته تبلغ الآفاق. تعامل الأمير مع هذه الحادثة جعلته يكتب فصلاً جديداً في التاريخ رائع وباهر، هي تتويج لحياة ثرية جداً من الأعمال والاشعاع.

هذه الحادثة تمثلت في إنقاذه حوالي خمسة عشر ألف مواطن ماروني مسيحي من بطش الدروز المسلمين في أكبر فتنة شهدتها سوريا بين المسلمين والمسيحيين سنة 1860، وحول الدور الفعال الذي لعبه الأمير في اخماد نار الفتنة بين الأشقاء في سوريا كتب شارلز هنري تشرشل قائلاً: "لقد أنقذ الأمير خمسة عشر ألف نسمة ينتمون إلى الكنيسة الشرقية من الموت، بل مما هو أسوأ من الموت، بشجاعته النادرة، ونشاطه الذي لا يكل، وحماسه المتحرر. فكل ممثلي الدول المسيحية الذين كانوا يقيمون عندئذ في دمشق، مدينون، بدون استثناء، لعبد القادر بحياتهم. إنه لقدر غريب وفريد من نوعه، إن عربياً قد وضع درعه الواقي فوق كرامة أوروبا الجريحة، وأن حفيد النبي قد وفى وحمى قرينة المسيح"[41]. .

وبعد أن يُفَصِّل المؤرخ محمد الشريف ساحلي في تفاصيل الحادثة، يذكر لنا إحدى الأساليب الناجعة التي بها أنقذ الأمير المسيحيين وذلك عندما نشر إعلاناً عبر المدينة كلها وهو "ليكن في علم الجميع أن من يأتيه بمسيحي حيّ سيقبض مبلغاً قدره خمسون قرشاً"، هذا الموقف استثار إعجاب العالم كله واعترافه، "فقد تنافس وتسابق الملوك والحكام في إرسال الهدايا والعطايا والأوسمة الشرفية للأمير، فهذه انجلترا والولايات المتحدة ترسل له هدايا ثمينة، وها هي تركيا وروسيا وبروسيا واليونان تقلده النياشين، وقد ذهب سلطان تركيا إلى حدّ وضع صورته إلى جانب صور العثمانيين القدامى. أما الشخصيات الأوروبية التي كانت تستعجل أفول الإمبراطورية التركية، فقد أشاعت إمبراطورية عربية يوهب تاجها للأمير"[42] . وهناك رسالة وجهها الأمير عبد القادر إلى السويسري إينارد غداة أحداث دمشق تبرز الوجه الإنساني للأمير في تعامله مع مختلف الطوائف والإثنيات ونص الرسالة هو "أما فيما يتعلق بقولكم يا صديقي العزيز حول ما تناهى إلى الصحافة في شأني، فإني أقول لكم بأني أكنّ عناية وتسامحاً جماً للناس، الأمر الذي يجعلني أجنح إلى احترام جميع الناس مهما كان معتقدهم ودينهم، بل إني أذهب إلى حد حماية الحيوانات ولا أرغب في إيذاء أي كان، بل على العكس، أسعى إلى خيرهم. إن الله قد خلق الناس كي يكونوا عباده لا عباداً لغيرهم. ولكنني للأسف أرى في زماننا هذا أن أولئك الذين أوكل إليهم أمر قيادتهم قد جعلوا منهم عبيداً. وبدل أن يجنحوا إلى نجدة الفقير وحماية الأرملة واليتيم، يستولون على ممتلكاتهم ويسخرونهم لإرضاء نزواتهم"[43]، وعلى الرغم مما يقوله المؤرخون الفرنسيون بأن موقف الأمير من هذه الأحداث هو اعتراف بالجميل للإمبراطور الفرنسي الذي كان كريما معه، غير أن هذا غير صحيح على الإطلاق، لأن "هذا العمل لم تمله على الأمير سوى الاعتبارات الإنسانية، وما توجبه روح التسامح والرحمة في الإسلام، وأن الدافع إليه اعتبارات إنسانية سامية مجردة من أية اعتبارات سياسية"[44].

ولكن رغم هذا التكريم وهذه الشهرة التي نالها الأمير بعد الحادثة، إلا أنه بقي متواضعاً، فكلما رفعته الأحداث إلى مدارج السمو، إلا وسعى إلى التحلي بالتواضع، مقتنعاً بأن ما قام به ليس سوى امتثال لإرادة الخالق، ليعتكف خلال شهرين في المسجد الأكبر بدمشق قصد التطهر بالصلاة والتأمل. وقد أكد المؤلف في نهاية هذا الفصل إلى أن ما قام به الأمير يستحق حصوله على جائزة نوبل للسلام التي تمنح، كما هو معروف للأشخاص الذين يقومون بجهود محمودة لإشاعة السلام والوئام بين الشعوب، وقد كان الأمير واحداً من هؤلاء العظماء، الذين أسسوا لثقافة السلم في العالم.

وفي خلاصة هذا الكتاب يطرح المؤلف محمد الشريف ساحلي كثير من القضايا التي أثيرت حول الأمير عبد القادر. ففي أحداها ينتقد محمد الشريف ساحلي ما جاء في كتاب "L'Algérie à l'époque d'Abd el-Kader" للكتاب الفرنسي مارسيل إمريت، حيث أنكر هذا الكاتب أي عبقرية الأمير، "فلئن كان يقر له بصفات الوطني الكبير ورجل الحرب المحنك، فلكي يحط من شأنه ويحصره في صورة المرابط البسيط ذي الأفكار المتخلفة" [45]، فهذا حكم جائر وبعيد عن الحقيقة العلمية، لأن معارف الأمير العلمية والتاريخية والأدبية، حتى وإن كانت سيئة، فلا يمكن الاستهانة بها.

أيضا يتطرق المؤرخ محمد الشريف ساحلي إلى قضية الأصالة والمعاصرة في فكر الأمير عبد القادر، إن الأمير كان وسطيا في هذه القضية، كما يرى المؤرخ، إذ "عبادة التقدم قد جعلت الأمير عبد القادر يحاكي المسلمين الأوائل الذين استطاعوا بفضل حماسهم الذي جعلهم يتجاوزون ذواتهم، أن ينقذوا ويحيوا الإرث العتيق في إطار حضارة عالمية"[46]، ولهذا كان يتوق إلى قيام دولة عصرية قوية بنظامها السياسي والاقتصادي، وخلال السنتين اللتين استغرقتهما الهدنة (1839/1837) عمل على تقوية الصناعة وبناء المعامل والمخازن المصانع، واستعان في ذلك بخبراء فرنسيين، وقد كتب في رسالة موجهة للملكة أميلي "يشكو فيها من وضع الحرب معترفا بأنه كان يتمنى بالأحرى أن يرى تقنيين فرنسيين في بلاده قادرين على مساعدته في مسعاه التجديدي التحديثي لا جنودا"[47]، ولكن رب معترض، كما يتساءل المؤرخ، قد يقول: هذه النزعة الإصلاحية التجديدية في المجال التقني، ألا تساوق نوعاً من المحافظة في المجال الثقافي والاجتماعي والسياسي؟ إنَّ الأمير لم يكن منبهراً بالحضارة الغربية، أراد أن يأخذ منها فقط ما يساعده في إحداث نهضة صناعية في بلاده، ولكنه بقي في نفس الوقت وفياً للحضارة الإسلامية مدركاً لمزاياها ومساوئها وحرص على تقويم هذه وإثراء تلك. وبعد عرض المؤرخ لموقف الأمير من الحداثة، يصل إلى قناعة مفادها أن الأمير عبد القادر كان رائداً من كبار رواد النهضة الإسلامية التي شرع فيها في القرن التاسع عشر ودعا إليها كل من جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي وشكيب أرسلان وغيرهم، ولا تزال أفكارهم حول النهضة متواصلة إلى يوم الناس هذا، فلو "قيّض للأمير مواصلة تجربته الرائعة في كنف السلم لكان قد جعل الجزائر في طليعة الشعوب الإسلامية"[48]، ليس هذا فقط، بل كان يمكن أن يوحد العرب والمسلمين حول كثير من القضايا المصيرية.

خاتمة:

إن هذا الكتاب رغم صغر حجمه، إلا أنه يعج بالقضايا الفكرية حول كل ما تعلق بحياة الأمير، تعليمه، الجوانب العسكرية والسياسية، ثقافته، محتوى مؤلفاته، مراسلاته، ويناقش هذه القضايا بأسلوب علمي رزين، وبموضوعية تنم عن ثقافته الواسعة. ولكن المؤلف محمد الشريف ساحلي ركز على الجوانب الإنسانية والأخلاقية في حياة الأمير وسلوكاته والتي بوأته المكانة الرفيعة مع عظماء الإنسانية، هذه المآثر التي حاولت كثير من الدراسات الفرنسية بالخصوص طمسها وتجاهلها، إلا أن المؤرخ محمد الشريف ساحلي كان من أوائل الباحثين الذين عملوا على إماطة اللثام عن الجانب الإنساني والروحي في شخصية الأمير، ومن هذه الجهة تكمن قيمة كتاب "الأمير عبد القادر فارس الإيمان". وإنه لمن دواعي الاعتزاز والفخر، كما يرى المؤلف، أن نرى مثل هذا الرجل المكسّر لعقبات الضغينة قد جمع ذويه وأعداءه القدامى من أجل عبادة القيم الإنسانية المشتركة.

قائمة المصادر والمراجع:

1. Gabriel Camps; LES BERBERES MEMOIRE ET IDENTITE, Editions Barzakh/ACTES SUD, Alger, avril 2011.
2. أحمد شرف الدين: محمد الشريف ساحلي فيلسوف ومؤرخ، المدرسة التاريخية الجزائرية، الجزائر، 1998.
3. جميل الحمداوي: الحضارة الأمازيغية أنثروبولوجيا الإنسان، التاريخ، الكتابة، الديانات والثقافة، ط1،أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2011.

4. جورج طرابيشي: معجم الفلاسفة، دار الطليعة بيروت، لبنان، 1987.
5. شارلز هنري تشرشل: حياة الأمير عبد القادر، ترجمة: أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر، 2009.
6. صالح فركوس: المختصر في تاريخ الجزائر من عهد الفنيقيين إلى خروج الفرنسيين (814ق.م/1962م)، دار العلوم للنشر والتوزيع، عنابة، الجزائر، 2003، ص 29.
7. عبد القادر بوطالب: الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، من الأمير عبد القادر إلى حرب التحرير، منشورات دحلب، الجزائر، 2009.
8. محمد الشرف ساحلي: الأمير عبد القادر فارس الإيمان، ترجمة: محمد يحياتن، منشورات ANEP، الجزائر، 2008.
9. محمد الشريف ساحلي: تخليص التاريخ من الاستعمار، تقديم وتعريب: محمد الشريف بن دالي حسين، دار القصبة للنشر، الجزائر، د ت.
10. محمد الصالح الصديق: أعلام من منطقة القبائل، ج1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ت.
11. محمد عباس: مثقفون في ركاب الثورة، في كواليس التاريخ (2)، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2004.
12. مراد وهبة: المعجم الفلسفي، ط3، دار الثقافة الجديدة، مصر، 1979.
13. يوهان كارل بيرنت: الأمير عبد القادر، ترجمة وتقديم: أبو العيد دودو، دار هومة، 2009، ص 73.

[1] محمد الشريف ساحلي: تخليص التاريخ من الاستعمار، تقديم وتعريب: محمد الشريف بن دالي حسين، دار القصبة للنشر، الجزائر، د ت، ص 07.

[2] أحمد شرف الدين: محمد الشريف ساحلي فيلسوف ومؤرخ، المدرسة التاريخية الجزائرية، الجزائر، 1998، ص 127

[3] محمد الصالح الصديق: أعلام من منطقة القبائل، ج1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ت، ص 164.

[4] محمد عباس: مثقفون في ركاب الثورة، في كواليس التاريخ (2)، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2004، ص 97.

[5] محمد الشرف ساحلي: الأمير عبد القادر فارس الإيمان، ترجمة: محمد يحياتن، منشوراتANEP ، الجزائر، 2008، ص 6.

[6] المصدر نفسه، ص 11.

[7] المصدر نفسه، ص 12.

[8] المصدر نفسه، ص 50.

[9] المصدر نفسه، ص 12.

[10] المصدر نفسه، ص 13.

[11] المصدر نفسه، ص 13

[12] المصدر نفسه ، ص 13

[13] المصدر نفسه، سف 14.

[14] جورج طرابيشي: معجم الفلاسفة، دار الطليعة بيروت، لبنان، 1987، ص 585.

[15] محمد الشرف ساحلي: الأمير عبد القادر فارس الإيمان، المصدر السابق، ص 14

[16] المصدر نفسه، ص 15

[17] المصدر نفسه، ص 35

[18] مراد وهبة: المعجم الفلسفي، ط3، دار الثقافة الجديدة، مصر، 1979، ص 365

[19] محمد الشرف ساحلي: الأمير عبد القادر فارس الإيمان، المصدر السابق، ص 35

[20] المصدر نفسه، ص 37

[21] المصدر نفسه، ص 37

[22] المصدر نفسه، ص 38.

[23] المصدر نفسه، ص 54

[24] المصدر نفسه، ص 55

[25] المصدر نفسه، ص 63.

[26] المصدر نفسه، ص 64.

[27] شارلز هنري تشرشل: حياة الأمير عبد القادر، ترجمة: أبو القاسم سعد الله، عالم المعرفة، الجزائر، 2009، ص 261.

[28] المصدر نفسه، ص 112.

[29] محمد الشرف ساحلي: الأمير عبد القادر فارس الإيمان، المصدر السابق، ص 106.

[30] المصدر نفسه، ص 107.

[31] شارلز هنري تشرشل: المصدر السابق، ص 67.

[32] المصدر نفسه، ص 69.

[33] المصدر نفسه، ص 70.

[34] عبد القادر بوطالب: الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، من الأمير عبد القادر إلى حرب التحرير، منشورات دحلب، الجزائر، 2009، ص 53.

[35] يوهان كارل بيرنت: الأمير عبد القادر، ترجمة وتقديم: أبو العيد دودو، دار هومة، 2009، ص 73.

[36] المصدر نفسه، ص 70.

[37] صالح فركوس: المختصر في تاريخ الجزائر من عهد الفنيقيين إلى خروج الفرنسيين (814ق.م/1962م)، دار العلوم للنشر والتوزيع، عنابة، الجزائر، 2003، ص 29.

[38] جميل الحمداوي: الحضارة الأمازيغية أنثروبولوجيا الإنسان، التاريخ، الكتابة، الديانات والثقافة، ط1،أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2011، ص 145.

[39] Gabriel Camps; LES BERBERES MEMOIRE ET IDENTITE, Editions Barzakh/ACTES SUD, Alger, avril 2011 , p245.

[40] جميل الحمداوي: المرجع السابق، ص 147.

[41] شارلز هنري تشرشل: المصدر السابق، ص 362.

[42] المصدر نفسه، ص 123.

[43] المصدر نفسه، ص 132.

[44] عبد القادر بوطالب: مرجع سابق، ص 259.

[45] المرجع نفسه ، ص 127.

[46] المرجع نفسه، ص 131.

[47] المرجع نفسه، ص 128.

[48] المرجع نفسه، ص 133.